العرب
الأربعاء 2019/11/27
السنة 42 العدد 11541

تنظيم داعش يتبنى نظاما فيدراليا لتأمين مصادر دخل

القيادة الجديدة تتخلى عن المركزية الاقتصادية

الخطر لم ينته

يربط البعض من المراقبين بين هزيمة داعش الميدانية والقتالية وبين ضعفه، إلا أن الحديث عن التراجع يقترن بالأساس بقدرة التنظيم على توفير مصادر تمويل وفيرة ومستقرة وهي الشفرة التي يحاول فكها من خلال تعديل استراتيجية التمويل بالتركيز على الاقتصادات المحلية، حيث سيتحول على الأرجح من نظام تمويل "مركزي" في العراق وسوريا إلى نظام موزّع بشكل كبير.

محمود زكي
كاتب مصري

سلطت تحذيرات مارشال بيلنغسلي، مساعد وزير الخزانة الأميركي لشؤون مكافحة تمويل الإرهاب، بتغير نمط تمويل تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) من المركزية إلى النظام اللامركزي، الأضواء على قيمة وأهمية الحركة الاقتصادية للتنظيم، والكشف عن قدرته على التمحور والتطور.

وأثار المسؤول الأميركي جدلا كبيرا في المؤتمر الصحافي الذي عقده، الخميس الماضي في لوكسمبورغ، عندما أشار إلى أن تنظيم الدولة الإسلامية، "ما زالت لديه قدرة كبيرة على الحصول على الملايين من الدولارات"، بما يعني أنه يملك مصادر تمويل تجعله قادرا على التأقلم مع المتغيرات.

يأتي ذلك وسط تقديرات متضاربة بشأن المصير والحيرة اللذين تعاني منهما الدول التي شاركت في الحرب ضد داعش خلال السنوات الماضية، فبعد القضاء على جزء كبير من الجسم الفاعل في كل من العراق وسوريا، والقبض على الآلاف من المنتمين إليه لا يعرف العالم أين يضع أقدامه وما هي الخطوة المقبلة للتعامل مع داعش.

تحول في المراكز

يستثمر قادة التنظيم في هذا الارتباك. ويحاولون القبض على زمام الأمور من جديد. ويستفيد من المعركة الدائرة حاليا حول مصير عشرات الآلاف من عناصر التنظيم والزوجات والأطفال القابعين في شمال شرق سوريا، فالدول الغربية لا تبدي استعدادا لعودة من يحملون جنسيتها. وتركيا تناور بهذه الورقة وممارسة المزيد من الضغوط. وقوات سوريا الديمقراطية الكردية تلوّح بالتخلي عن مسؤوليتها عن القابعين في سجونها بعد فتور العلاقة مع الولايات المتحدة.

لم تكن التصريحات الأميركية سوى ورقة تضاف إلى دفتر كبير من التمدد الخطير للجماعات المتطرفة، والقدرة على التلوّن، وتوظيف التناقضات الحاصلة بين قوى إقليمية ودولية عديدة.

تفضي التطورات الاقتصادية إلى تغيير في طبيعة العمل داخل التنظيم بناء على الظروف الراهنة. لكن يعتقد خبراء أن التحول من النظام المركزي إلى اقتصاديات لا مركزية وموزعة ومستقلة مسألة تزيد من تعقيدات المواجهة الدولية ضد الإرهاب، وتحدّ من التفاؤل الذي صاحب هدم قواعد التنظيم الرئيسية في سوريا.

وقال ديفيد وينتر، الباحث في المركز الأوروبي لمكافحة الإرهاب في لاهاي بهولندا، إن داعش يتجه نحو تغيير شكله كليا بعد مقتل زعيمه أبوبكر البغدادي، وتولي قائد جديد، وإحدى الدلالات على ذلك التحول الجاري في المنظومة الاقتصادية.

يبدو التنظيم أقرب للعمل بالمنظومة الفيدرالية، عقب تواضع حظوره في سوريا والعراق.

وبات يميل أكثر إلى نظم الإدارة الذاتية لكياناته الميدانية في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وبصورة تسمح للخلايا بالعمل بحرية أوسع في التخطيط وتنفيذ العمليات، وتوفير تمويلات خاصة لتصبح مثل النظام الفيدرالي، أي كل ولاية لها مصادر دخل وقوانين، وفي النهاية تبقى تحت لواء إدارة مركزية واحدة.

مع تولي أبوإبراهيم الهاشمي قيادة داعش، وهو اسم غير معروف، تواترت الأسئلة حول تأثير ذلك على حظوظ التنظيم ككل. وثمة من يرى أن التنظيم الرئيسي والأفرع المتباينة واجها أزمة توافق على قائد جديد.

وخشي القادة الكبار من أن يؤدي موت البغدادي إلى تفكيك خطير في هياكل التنظيمين وظهور كيانات منشقة موازية. وخرجت هذه المخاوف من وجود أفرع تمتلك رغبة في الاستقلال، مثل بوكو حرام في نيجيريا، وجماعة أنصار الإسلام في الفلبين.

راقت فكرة الميل نحو إعطاء الحكم الذاتي لكل جماعة تابعة لداعش للبعض، وبدت خطوة جيدة لقطع الطريق على من يريدون الانفصال، وترضي غرور زعماء الأفرع الساعية للاستقلال الذاتي.

أوضح وينتر في تصريح لـ"العرب"، عبر الهاتف من لاهاي، أن هناك معايير تحدد تقدم وتراجع التنظيم، بينها السيطرة الميدانية والتوسع الأيديولوجي، والقوة الاقتصادية التي تساعد على زيادة رقعة الأرض وترفع فاعلية التجنيد والاستقطاب.

ولفت وينتر إلى أن الأمر يحتاج 500 دولار فقط لإطعام وتوفير سكن خلية إرهابية من شخصين أو ثلاثة، قائلا "قاعدة إنشاء حركة متطرفة تقول: معك أموال إذا أنت قادر على البقاء".

عكس التحذير الأميركي خطورة الوضع، وما يحمله من تداعيات يمكن أن تحول المسألة من المركزية إلى اللامركزية أو ما يعرف بـ"المال الموزع"، لأن ذلك يعني صعوبة تعقّب حركة الأموال وتجفيف منابع الإرهاب بسبب كثرتها وتشعبها.

منابع جديدة

أكد وينتر أن أفرع داعش متنوعة ومتواجدة في بلدان عدة، وداخل كل دولة العشرات من الفرص الاستثمارية، ويستفيد التنظيم من فوضى آبار النفط في ليبيا مثلا، وهو من مصادر التمويل المهمة، في حين يعتمد الجنود على أموال الفدية من عمليات الخطف في الفلبين وباكستان ونيجيريا، بينما يعملون بالتجارة في شرق أفريقيا ومالي والنيجر.

ديفيد وينتر

داعش يتغير بعد موت البغدادي، وإحدى الدلالات على ذلك التحول الجاري في المنظومة الاقتصادية

أفصحت الولايات المتحدة عن البعض من أدوات داعش الاقتصادية المستحدثة، منها التركيز على مقدار الفدية المتحصلة من عمليات الخطف والابتزاز، والتغول في ممارسة السرقات في نيجيريا، حيث عرفت عناصر التنظيم بسرقة الأبقار هناك، على عكس السابق، حيث كانت المصادر الأساسية منحصرة في جمع الجباية وبيع الآثار وعوائد النفط الذي يتم تهريبه.

يبدو تحول النظام الاقتصادي لداعش دليلا على وجود أزمة داخل التنظيم، تتعلق بضعف استقبال المنح والتمويلات من المنظمات والعناصر المشبوهة، وصعوبة توفير شبكة تداول الأموال بين الأفرع بسبب تصاعد درجة الرقابة القوية واللصيقة من مجموعة مكافحة تمويل داعش التي أنشأتها الولايات المتحدة وتضم السعودية وبعض الدول الأوروبية، لتعقب حركة الأموال وقطع الطريق أمامها.

يعني استقلال الأفرع ماديا أن قادة داعش الجدد فشلوا في الحفاظ على هيمنة المركز، وهو لب فكرة الخلافة الحاكمة، وباتوا عاجزين عن التمدد اقتصاديا.

ويمثل وجود نظام يحكم التنظيم المتطرف بعد رحيل البغدادي، أن القائد الحالي جاء محمّلا بأهداف سياسية ودينية واقتصادية تختلف عن سابقه. ويمكن اعتبار سياسة داعش الاقتصادية الجديدة مسألة تبرهن على ذلك التغيير المنتظر.

وكشفت ماري لوبكين، كاتبة كندية متخصصة في دراسة الاقتصاديات غير الرسمية للجماعات والكيانات المتشددة، أن داعش يعتبر من التنظيمات الذكية، ويناهض المجتمع العالمي ويقف ضد أفكاره، لكنه يستخدم آلياته في التطوّر السياسي والاقتصادي.

وأضافت، في مقال لها على موقع "ميديم تي.آي"، المتخصص في رصد ومكافحة الإرهاب، أن النظام العالمي يتجه أكثر نحو الاقتصاديات اللامركزية، ومنح المزيد من الاستقلالية للكيانات المختصة والمسؤولة عن الملفات الاقتصادية الرئيسية، ورفع يد السلطات الرسمية المباشرة على حركة الاقتصاد.

يدرك داعش هذه المعادلة وقدرته على التعامل مع توازناتها، ويعمل وفق الآلية العالمية، ويرغب في هدم النظام العام، لكنه يسعى للتطور عبر أدواته أولا، ليحقق أعلى استفادة ممكنة.

لم يكن التحوّل في المركزية الاقتصادية الدلالة الأولى على الفلسفة التي يملكها التنظيم، وسعت قياداته عند الإعلان عن الخلافة بمناطق في سوريا والعراق إلى إبراز التنظيم كدولة حديثة لها نظام متماسك وحكومة وبرلمان (مجلس شورى) وكيان اقتصادي وعملة مستقلة وحركة اجتماعية منتظمة.

لن تتوقف عملية تمحور التنظيم في المستقبل عند عمليات التمويل، وقد يصاحب ذلك تغيرات واسعة في طريقة تنفيذ العمليات ومنح الأسلحة وأسلوب الاستهداف، بما يتماشى مع النظام الجديد الذي يدير التنظيم الراديكالي، ومن المرجح أن تصبح التحولات المنتظرة أكثر دموية ووحشية لتسير بالتوازي مع إعادة بناء داعش وتجديد الدماء.

واشنطن تعيد تشغيل أسطوانة الحرب ضد داعش

مسؤولون أميركيون يبدون مخاوفهم من القادم بعد البغدادي

واشنطن - أعلنت واشنطن على لسان الجنرال، كينيث ماكنزي، قائد القيادة المركزية الأميركية، عزمها استئناف عملياتها العسكرية ضد تنظيم داعش في الأيام والأسابيع المقبلة. وقال ماكنزي للصحافيين، على هامش قمة حوار المنامة الأمني في البحرين، إنّ قوة أميركية تتألف من 500 فرد تتواجد شرقي نهر الفرات وإلى الشرق من دير الزور حتى الحسكة، تنوي العمل مع شركائها لمواصلة العمليات ضد داعش حتى آخر وادي نهر الفرات حيث توجد هذه الأهداف.

وكانت إدارة الرئيس الأميركي دونالد ترامب صدمت في وقت سابق حلفائها عندما أعلنت عن عزم واشنطن سحب جميع قواتها من سوريا. لكنها تراجعت في وقت لاحق وقررت الاحتفاظ بقوة في الجزء الشمالي الشرقي من البلاد، قائلة إنها ستركز على منع داعش من إعادة تجميع صفوفه في المنطقة ومهاجمة حقول النفط فيها.

وكان ترامب قد أعلن، بعد الغارة التي قتل فيها البغدادي، إن العالم أصبح أكثر أمانا. واعتبر وزير دفاعه، مارك إسبر، أن قتل البغدادي انتصار كبير على داعش، ولكنّ مسؤولين أميركيين أبدوا مخاوفهم مما سيأتي بعد البغدادي.

وفي 21 نوفمبر 2017، إثر السيطرة على مدينة البوكمال السورية، وجّه قائد فيلق القدس الجنرال قاسم سليماني، رسالة إلى المرشد الأعلى للثورة الإسلامية في إيران علي خامنئي، ادعى فيها "نهاية دولة داعش".

وظهر الرئيس الإيراني حسن روحاني في اليوم نفسه على التلفزيون الرسمي مبشّرا، على الهواء مباشرة، بنهاية التنظيم. وفي اليوم التالي أصدرت وزارة الخارجية الإيرانية بيانا حول ما وصفته بـ"انتهاء دولة داعش الإرهابية".

ليست هذه المرة الأولى التي يهلل فيها الأميركيون، ويحتفي بها الإيرانيون معلنين النصر على داعش. فالتنظيم الذي أعلن عن وجوده صيف 2014، كان موجودا قبل ذلك بعشر سنوات، وقاتل القوات الأميركية تحت مسمى القاعدة، إلى أن أدت عملية عسكرية أميركية كبيرة لسحقه، حينها أيضا هللت الحكومة الأميركية، مبشرة بنهاية الحرب.

الهزائم السابقة لم تُنه التنظيم الذي تمكّن من الظهور بعد كل هزيمة. وفي ظل محاولة الولايات المتحدة من جديد إنهاء الحرب هناك في أعقاب انهيار ما سمي خلافة، يرصد تقرير نشرته مجلة "ذا أتلانتيك" مراحل التنظيم، وكيف استطاع الاستمرار رغم استهداف قياداته. ويحاول التقرير الإجابة عمّا إذا بإمكان داعش الاستمرار وتكرار تجربته في البقاء هذه المرة أيضا، وما الذي يمكن أن يصبح عليه شكل التنظيم في حال استمراره.

ويقول كاتبا التقرير، كاثي غيلسنان ومايك غيغلو، رغم مقتل زعيم داعش، وفقدان التنظيم في العام الماضي آخر مناطقه، التي بلغت مساحتها في أوج سيطرته ما يعادل حجم بريطانيا، ما زال داعش والظروف وحتى البيئة التي هيأت ظهوره قائمة. قد يكون داعش أضعف اليوم، لكن ما زال لديه الآلاف من الأعضاء.

لتنظيم داعش هدف رئيسيّ، يكمن في نيته البقاء. وفيما كرر ترامب رغبته بالخروج من المنطقة تماما، يضع داعش نصب عينيه الجيل القادم. وأشار التقرير إلى وجود نحو 20 ألف طفل أعمارهم من دون الخمسة أعوام في مخيمات في سوريا، ويمكن أن يشكّل هؤلاء الأطفال وقودا هاما لاستمرار داعش.

وقد هرب بعض أعضاء داعش من العراق وسوريا عندما فقد التنظيم مناطقه، بنية نشر رؤيته العنيفة. ولا يتوقع آرون زيلين، باحث في المنظمات الجهادية، فورة جديدة لداعش، قريبا، ولكنه يشير إلى احتمال أن يحافظ داعش على مكوّنه الرئيسي في العراق خاصة، وفي سوريا أيضا، لأن التنظيم يعمل بسهولة تحت الأرض في مناطقه، ونجا من قبل بهذه الطريقة؛ بواسطة ارتباطات بين أنصاره وفروعه حول العالم. ومن هناك، يستطيع الانتظار، تطبيقا لرؤية طويلة الأمد وضعها قادته باسم "إستراتيجية الأجيال".

"إنهم يعتبرون هذه الفترة بمثابة معركة استنزاف، وفي نهاية المطاف سيصيبون الجميع بالإرهاق. هم ليسوا متحجري التفكير، بل هم على استعداد للتطور.. لا يتعلق الأمر بالقتال وحسب، بل هو مشروع مجتمعي".

ويعتقد آخرون أن داعش قد يعمل كحركة إجرامية خطيرة، قادرة على تنفيذ عمليات قتل وسلب وابتزاز، لكن برأيهم تستطيع قوات أمنية محلية التعامل معها.

وكان راسل ترافرز، القائم بأعمال مدير المركز الوطني لمكافحة الإرهاب قال أمام لجنة في الكونغرس إن داعش فقد الكثير من القادة، ولكنه مستعد أيضا لخسارة محتملة في صفوف زعمائه، مشيرا إلى "بيروقراطية جديدة في تخطيط للخلافة"، كما أنهم سيستغلون حالة عدم الاستقرار في سوريا والعراق.

ولا يزال التنظيم قادرا على المناورة، خاصة وأن الجماعات الإرهابية طوّرت من تكتيكاتها ومن طرق استخدامها للتكنولوجيا. ورغم فقدانه تقريبا لكل الأراضي التي استولى عليها، إلّا أنه "أثبت قدرته على التكيّف، خاصة من خلال جهوده لإلهام وتوجيه أتباعه عبر الإنترنت".

وقدّر ترافرز أن داعش لا يزال لديه نحو 14 ألف عنصر في سوريا والعراق، ما يعني أنها أرضية خصبة لتمرد طويل الأجل.

من جانبه قال السفير الأميركي في سوريا، روبرت فورد، إن النجاح في القضاء على داعش يتم بإقناع دول المنطقة بضرورة التعامل مع مشكلات داعش بشكل منفرد، مشيرا أن الفرصة كانت متاحة لإدارة ترامب لفرض مثل هذا الأمر خاصة مع انتهاء الجزء العسكري من الصراع.

ولئن حظي التنظيم باهتمام عالمي، بسبب خطورته المتمثلة في خطابه المتطرف وجرائمه ضد الأقليات وقدرته على تجنيد الإرهابيين وشنّ العمليات الإرهابية، إلا أن الجماعات الجهادية الأخرى لا تقل خطورة عن داعش ولا تختلف عنه إلا من حيث الدرجة، فالغاية التي ينشدها الجهاديون بمختلف توجهاتهم واحدة، لكنهم يسلكون طرقا مختلفة للوصول إليها.

وكشف مؤشر الإرهاب العالمي 2019، أن الهجمات التي نفذتها حركة طالبان خلال العام 2018، كانت أكثر فتكا من أي هجمات شنّتها تنظيمات أخرى حول العالم، بما فيها تنظيم الدولة الإسلامية. وأظهر المؤشر أن طالبان حصدت أرواحا بصورة أكبر للغاية مما قام به تنظيم داعش العام الماضي، رغم أن عدد الوفيات الناجم عن عمليات إرهابية تراجع خلال 2018.

وأشار إلى أن 71 دولة سجلت على الأقل مقتل شخص واحد بسبب عمليات إرهابية خلال العام 2018، وتصدّرت أفغانستان قائمة الدول بتسجيل أكثر من 7 آلاف حالة وفاة بالإرهاب. وكان تنظيم داعش مسؤولا عن 1328 وفاة خلال العام 2018 وهو الرقم الذي يعتبر تراجعا كبيرا عن الأرقام التي سجلها التنظيم في العام السابق، ملقية الضوء على أن العام الجاري هو العام الأول الذي لا يتربع فيه داعش على قائمة أكثر المنظمات الإرهابية فتكا منذ العام 2014.